AL-QANATIR
INTERNATIONAL JOURNAL OF ISLAMIC STUDIES
eISSN: 2289-9944
Vol. 24. No. 1. October Issue (2021)

INTERPRETATION OF OBSCURE QURANIC VERSES THROUGH "*DUSTUR AL-AKHLAQ FI AL-QUR'AN*" BY MUHAMMAD ABDULLAH DIRAZ: AN ANALYTICAL STUDY OF OBLIGATION AND RESPONSIBILTY AS MODEL

تفسير مشكل القرآن من خلال "دستور الأخلاق في القرآن" لمحمد عبد الله دراز: دراسة تحليلية لفصلي الإلزام والمسؤولية أنموذجًا

Bey Zekkoub Abdelali[i]

[i] (*Corresponding author*). Associate Professor, Department of al- Qur'an and its Sciences, Dean of Faculty of Islamic Sciences, Al-Madinah International University, Malaysia. bey.zekkoub@mediu.edu.my

Abstract

Allah has revealed the Noble Quran as a way of life for all people, so he commanded us to contemplate it in order to understand its meanings, revealing the faces of its miracles, extracting its universal laws, and exploring its secrets and wisdom. The Almighty Allah said which means: ﴿a Book We have revealed to you abounding in good that they may ponder over its verses, and that those endowed with understanding may be mindful﴾ (al-Quran. Sadd: 29). But forsaking the full reflection of the Quran and abandoning the discussion of the scholars' books has led to the inability to answer the problems raised about understanding some verses which required high accuracy of scholars explanation. Therefore, the research aimed to present some Quranic verses that might seem contradicting to its true meaning , and then quoting the suggestions of the scholar Diraz to enable understanding the real meaning of that verses through his book "Dustur Al-Akhlaq Fi Al-Qur'an", to defend the Quran on the one hand, and then shedding light on the methodology that had been implemented by Diraz to explain the obscure Quranic verses on the other hand; this can be used as a path for those who are eager to ward off the delusions that stem from the misunderstanding of the Quranic verses. By employing the inductive and deductive analysis method; the research has reached three problematic examples and presented several solutions proposed by Diraz; which are as follow: Firstly, the clash between the obligation of the obedience of the prophet Muhammad peace be upon to him and the verses that blame him, secondly, the clash between the ethical responsibility and the intercession of the day of judgment, and thirdly, the clash between the individual accountability of the own deeds in this life and its independence from other people's fate regardless of the kindship.

Keywords: *Interpretation, Obscure, al-Quran, Obligation, Responsibilty*.

ملخص البحث

لقد أنزل الله القرآن الكريم؛ لنتّخذه منهج حياة؛ فأمرنا بتدبّره؛ لفهم معانيه، ودفع مشكله، واستنباط أحكامه، وكشف إعجازه، واستخراج سننه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (القرآن. ص: ٢٩)؛ لكن هجر التدبّر

التّامّ للقرآن، وترك مفاتشة تراث العلماء به؛ قاد إلى عدم القدرة على الإجابة عن الإشكالات المثارة حول فهم بعض آياته؛ ولذلك فإنّ البحث استهدف استخراج بعض المواضيع القرآنية التي يوهم ظاهرها التعارض من خلال فصلي الإلزام والمسؤولية من كتاب: "دستور الأخلاق في القرآن" للعلامة محمد عبد الله دراز، ثم نقل توجيهاته لها، إسهامًا في الذّب عن كتاب الله من جهة، والتعريف بطريقة دراز في تفسير مشكل القرآن من جهة أخرى؛ ليكون ذلك طريقًا هاديًا للمهتمين في دفع إيهام الاضطراب عن كتاب الله، موظّفًا المنهج الاستقرائيّ؛ لتتبع الآيات القرآنية التي يوهم ظاهرها التعارض من خلال دستور الأخلاق في القرآن، ثم الاستنباطي التحليلي؛ لاستخراج طريقة دراز في التعامل مع الإشكالات الموهمة للآيات القرآنية، وعرض إجاباته عنها وتوجيهاته لها، ومن ثم مناقشتها وتحليلها. وقد توصّل البحث إلى استخراج ثلاثة إشكالات نموذجية مع عرض عدّة توجيهات للشيخ دراز لها؛ فالأوّل: ما أشكل بين وجوب طاعة محمّد ﷺ، وخطاب العتاب الموجّه إليه، والثّاني: ما أشكل بين المسؤوليّة الأخلاقيّة، والشّفاعة الأخرويّة، وأمّا الثّالث: فهو ما أشكل بين المسؤوليّة الفرديّة، والإلحاق بدرجات الجنة.

الكلمات المفتاحية: التفسير، المشكل، القرآن، الإلزام، المسؤولية.

مقدّمة

فإنّ القرآن الكريم هو دستور المسلمين الذي ينير لهم دروب الخير والفلاح والصّلاح، وهو دستور حياتهم من الولادة إلى الممات، ومن المهد إلى اللّحد، والمتدبر للقرآن الكريم لا يجد فيه تعارضًا حقيقيًّا، ولا يلمس فيه تناقضًا لا في فصاحة أسلوبه، ولا في أخباره الغيبية، ولا في تشريعاته وقوانينه، ولا في أخلاقه، ولا في وجوه إعجازه، كما أنه لا مطعن في ألفاظه ولا في معانيه، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (القرآن. النساء: ٨٢)، فهذه الآية الكريمة تنفي التناقض عن القرآن الكريم من جهة ألفاظه ومعانيه، وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (القرآن. فصلت: ٤٢)، وهذه الآية الكريمة تنفي وقوع الباطل والتحريف في كتاب الله عز وجل، وقد يتوهّم بعض غير المتخصصين في مجال الدراسات القرآنية؛ أن بين بعض آياته تعارضًا واختلافًا؛ نتيجة عدم درايتهم بغريب ألفاظ القرآن الكريم، أو مشتركه، أو إعرابه، أو ناسخه ومنسوخه، أو مطلقه ومقيده، أو عامه وخاصه، أو مجمله ومفصله، أو مبهمه ومبينه وغير ذلك، ولكن سرعان ما يزول هذا الإشكال، بعد قراءة القرآن الكريم

قراءة تأملية تدبرية، وإثارة الأسئلة على النفس، ومطالعة كتب التفسير، ومجالسة أهل الفنّ المتخصصين؛ لإزالة وجوه الغموض فيها، والحصول على فهم أعمق للكتاب المجيد.

ذلك ويعد موضوع مشكل القرآن الكريم من الموضوعات المهمة، التي لم تحظ بعناية كبيرة في مجال الدراسات القرآنية، إذ لم يتطرق إليه بتصنيف مستقل في كلّ عصر من العصور مع وجود دواعي الحاجة إلى ذلك، ونحن في هذا العصر بأمس الحاجة إلى الدراسات الأكاديمية المتخصصة في مجال الدراسات القرآنية التي تعنى بالتصدي لكل ما يثار حول ديننا ولغتنا وقرآننا وثقافتنا.

وتكمن أهمية هذا الموضوع؛ أنه لم يفرد بدراسة مستقلة حتى الآن، فهناك عشرات المقالات حول فكر الشيخ دراز، وآثاره في السنة النبوية، ودراسات حول مؤلفاته، وبحوثه في القضايا المعاصرة، ومع هذا الاهتمام الكبير بجهود الشيخ دراز، إلا أن الباحث لم يعثر على دراسة واحدة أفردت تفسير مشكل القرآن من خلال "دستور الأخلاق في القرآن" بالدراسة والتحليل؛ لذا صار من الأهمية بمكان الكتابة حول هذا الموضوع، وملأ هذا النقص المعرفي بمعارف علمية جديدة، يستفيد منها المهتمون بالدّفاع عن القرآن الكريم.

هذا وإنه قمين بالمسلمين في الوقت الراهن، ولا سيّما طلاب العلم منهم؛ أن يهتمّوا بتنوير القرآن الكريم في حلّهم وترحالهم، ومدارسهم ومساجدهم، ومجالسهم وأحوالهم؛ لما له من أهمية كبرى في دفع كل ما يثار حول القرآن الكريم من دراسات استشراقية، أو دعوات إلحادية، أو أفكار تطرّفية. ولا يتهيّأ هذا؛ إلا بعد تدبر القرآن الكريم (عبد العالي، ٢٠١٩)، وإثارة الأسئلة على النفس، ثم مفاتشة تراث العلماء به.

المبحث الأول: تعريف التفسير والمشكل والإلزام والمسؤولية في اللّغة والاصطلاح

المطلب الأول: تعريف التفسير في اللّغة والاصطلاح

التفسير في اللغة مصدر الفعل: فسّر، يفسّر، تفسيرًا، فهو مُفسّر، والمفعول مُفسّر، وأصل التفسير كما جاء في معجم مقاييس اللغة: "الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه. من ذلك الفَسْر، يقال: فَسَرْت الشيء وفَسّرته" (ابن فارس، ١٩٨٠)، وجاء في لسان العرب: "الفسر: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، واستفسرته كذا أي سألته أن يفسره لي" (ابن منظور، ١٩٩٣).

وفي اصطلاح المفسّرين، عرّف التفسير بتعاريف كثيرة كلّها تتفق في أن التفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى في كتابه. ولعلّ أفضل التعاريف هو تعريف أبي حيّان الأندلسي؛ حيث قال : "هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمّات لذلك" (أبو حيان، ١٩٩٩)، ويليه تعريف عبد العظيم الزرقاني؛ حيث قال: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية" (الزرقاني، ١٩٩٩).

المطلب الثاني: تعريف المشكل في اللّغة والاصطلاح

المعنى اللّغوي للمشكل يدور حول الاختلاط، والالتباس، والاشتباه، والمشاكلة، والمماثلة، والموافقة. فأصل المشكل كما جاء في معجم مقاييس اللغة مِن: "الشين والكاف واللام معظم بابه المماثلة. تقول: هذا شكل هذا، أي مثله. ومن ذلك يقال أمر مشكل، كما يقال أمر مشتبه، أي هذا شابه هذا، وهذا دخل في شكل هذا" (ابن فارس، ١٩٨٠)، وجاء في لسان العرب: "والشكل: المثل، تقول: هذا على شكل هذا أي على مثاله. وفلان شكل فلان أي مثله في حالاته. ويقال: هذا من شكل هذا أي من ضربه ونحوه، وهذا أشكل بهذا أي أشبه. والمشاكلة: الموافقة، وأشكل الأمر: التبس واختلط، وأمور أشكال: ملتبسة، وأشكلت علي الأخبار وأحكلت بمعنى واحد" (ابن منظور، ١٩٩٣).

وأما في اصطلاح علماء القرآن الكريم وعلومه؛ فعلى النحو الآتي:

١. قال الزركشي رحمه الله: "هو ما يوهم التعارض بين آياته" (الزركشي، ١٩٥٧).
٢. وقال السيوطي رحمه الله: "والمراد به ما يوهم التعارض بين الآيات" (السيوطي، ١٩٧٤).
٣. وقال ابن عقيلة رحمه الله: "هو ما أشكل معناه على السامع، ولم يصل إدراكه إلا بدليل آخر" (ابن عقيلة، ٢٠٠٦).
٤. وقال القصير حفظه الله: "المشكل هو الآيات القرآنية التي يوهم ظاهرها معارضة نص آخر، من آية قرآنية، أو حديث نبوي ثابت، أو يوهم ظاهرها معارضة نص معتبر من: إجماع، أو قياس، أو قاعدة شرعية كلية ثابتة، أو أصل لغوي، أو حقيقة علمية، أو حس، أو معقول" (القصير، ٢٠٠٩).

ويتلخّص مما سبق: أنّ تفسير مشكل القرآن عند علماء القرآن الكريم وعلومه هو: بيان مراد الآيات القرآنية التي التبس معناها واختلط على غير المتخصصين؛ فلم يعرف وجه دلالتها؛ إلا بدليل آخر على وجه تدبّر القرآن الكريم ومفاتشة العلماء المتخصصين به.

المطلب الثالث: تعريف الإلزام في اللّغة والاصطلاح

الإلزام في اللغة مصدر الفعل: لزم، يلزم، لَزِمًا ولزومًا، فهو لازم، والمفعول ملزوم، وأصل الإلزام كما جاء في معجم مقاييس اللغة: " اللام والزاء والميم أصل واحد صحيح، يدل على مصاحبة الشيء بالشيء دائما. يقال: لزمه الشيء يلزمه. واللزام: العذاب الملازم للكفار" (ابن فارس، ١٩٨٠)، وجاء في لسان العرب: "لَزِمَ الشيء يَلْزَمُه لَزْماً ولُزوماً ولازَمَهُ مُلازَمَةً ولِزاماً والْتَزَمَه وأَلْزَمَه إياه فالتزمه. ورجل لُزَمَةٌ: يلزم الشيء فلا يفارقه" (ابن منظور، ١٩٩٣)، وفي التحرير والتنوير: "الإلزام: جعله لازما له، أي غير مفارق، يقال: لزمه إذا لم يفارقه" (ابن عاشور، ١٩٨٤).

وفي الاصطلاح كما جاء في دستور الأخلاق: "هو القاعدة الأساسية والمدار الذي يدور حوله كل نظام أخلاقي، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام، فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدمت المسؤولية فلا يمكن أن

تعود العدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، ومصادره: القرآن والسُّنَّة والإجماع، والقياس" (دراز، ١٩٧٣). وفي نظر مقداد يالجن هو: " أن يلتزم بسلوك الخير حبا في الخير وأن يجتنب الشر كرها له واشمئزازا منه في السر والعلن في الظروف المختلفة سواء أكانت هذه الظروف مساعدة للالتزام الأخلاقي أم غير مساعدة؛ لأن التربية الأخلاقية أساسا هي تكوين اسعداد كامل للالتزام بالأخلاق مهما كانت ظروف الحياة التي يعيش فيها" (مقداد يالجن، ١٩٧٧).

المطلب الرابع: تعريف المسؤولية في اللّغة والاصطلاح

المسؤولية من: سأل، يسأل، سؤالا، فهو سائل، والمفعول مسؤول، وأصل المسؤولية كما جاء في معجم مقاييس اللغة: " السين والهمزة واللام كلمة واحدة. يقال سأل يسأل سؤالا ومسألة. ورجل سؤلة: كثير السؤال" (ابن فارس، ١٩٨٠).

وقد عرّفت اصطلاحًا في دستور الأخلاق بأنها: "كون الفرد مكلّفا بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدّم عنها حسابا إلى غيره وينتج عن هذا التّحديد أنّ فكرة المسؤولية تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسؤول بأعماله وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال، والمسؤولية قبل كلّ شيء هي استعداد فطريّ، إنّها هذه المقدرة على أن يلزم الإنسان نفسه أوّلا، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصّة" (دراز، ١٩٧٣)، وعرّفت في كتاب التربية الأخلاقية الإسلامية بأنها: "تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العلمية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى، وأمام ضميره في الدرجة الثانية، وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة (مقداد يالجن، ١٩٧٧).

المبحث الثاني: التعريف بالكاتب والكتاب

المطلب الأول: التعريف بالكاتب

ولد الشيخ بمصر في ٨ نوفمبر ١٨٩٤م، حفظ القرآن الكريم في سن مبكر، وتميّز منذ نعومة أظافره بنبوغه وبشغفه القوي في تحصيل العلم، وكان إلى جانب ذلك يمارس أنشطة رياضية مختلفة؛ كالفروسية، والسباحة، ولعبة التنس، والمشي الطويل، ولقد أسهم جوه العائلي بدور كبير في تحقيق نضجه الفكري، التحق بالأزهر حتى نال الشهادة العالمية سنة ١٩١٦م، ونال دكتوراه دولة من جامعة السربون سنة ١٩٤٧، وكان الشيخ في حياته كثير التعلّق بالقرآن الكريم؛ إلى غاية كما يقول العلامة القرضاوي حفظه الله: "كلما ذهبنا إليه في بيته إلا وجدناه يتلو القرآن استظهارًا، لقوة حفظه له، يتعبّد بتلاوته" (فضلية، ٢٠٠٧).

وقد كان الشيخ محمد من العلماء الموسوعيين الذين جمعوا بين علوم الشريعة، وثقافة العصر، وأجاد الفرنسية، فهو ابن الأزهر، وابن السربون، وقد ترك كتبا قليلة، وكلها بمنهجية متفردة، وهي: "الدين"، "دستور الأخلاق في القرآن"، "كلمات في مبادئ علم الأخلاق"، "النبأ العظيم"، "مدخل لدراسة القرآن الكريم"،

وترك الشيخ كذلك: تفسير الفاتحة، ومقدمة التلاوة لعدد من سور القرآن الكريم، وكلها تدل على عمق نظرات الشيخ إلى كتاب الله، وتذوقه لمعانيه، وغوصه في أسراره، وكان كذلك من الراسخين في علوم السنة، ولا سيما في فقه الحديث، وشرحه، كما تبين ذلك من خلال كتابه: "المختار من كنوز السنة".

وقد قام بتخريج أحاديث "الموافقات" الذي حققه والده، وله بحوث ماتعة عن القرآن الكريم، والإسلام والرق، وكرامة الفرد في الإسلام، والمسئولية في الإسلام، ومبادئ الأخلاق نظرية وعملية، ومبادئ القانون الدولي في الإسلام، والربا في نظر القانون الإسلامي، وإصلاحات الشيخ محمد عبده، وهذه البحوث نشرت في أمهات المجلات الإسلامية بمصر، وجمعت بعض محاضرات الشيخ ومقالاته في كتاب مطبوع بعنوان "دراسات إسلامية".

وكان الشيخ عضوا في جماعة كبار العلماء، ومن مواقفه السياسية: رفضه تولي منصب مشيخة الأزهر، بعد أن رفض الحكام العسكريون إطلاق يده في إصلاحه، ومن مواقفه أيضًا: رفضه التوقيع على بيانات استصدرها نظام الرئيس جمال عبد الناصر من بعض علماء الأزهر وهيئة كبار العلماء بمصر، تصف جماعة الإخوان المسلمين بأنهم خوارج لا تقبل منهم توبة ولا شفاعة، وقد رد الشيخ على من حمل إليه البيان للتوقيع عليه بالقول: "أتريد مني أن أوقّع على إدانة أهل الإسلام"، توفي الشيخ أثناء مشاركته في "المؤتمر الإسلامي الدولي" المنعقد بلاهور في يناير سنة ١٩٥٧م، حيث أعد بحثا قيما بعنوان "موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها (البيومي، ١٩٩٥ ؛ فضلية، ٢٠٠٧ ؛ الشنقيطي، ٢٠١٧).

المطلب الثاني: التعريف بالكتاب

دستور الأخلاق في القرآن: كتاب فريد استكشف فيه الشيخ العلامة محمد دراز أرضًا علمية لم يكد يطأها أحد قبله، واجتهد فيه للكشف عن الشريعة الأخلاقية في القرآن الكريم، مبيّنًا سموّها على غيرها من النّظريات الأخلاقيّة الفلسفيّة.

والكتاب رسالة دكتوراه قدمها الشيخ بالفرنسية بعنوان: (La Morale du Coran) سنة ١٩٤٧ في جامعة السوربون بإشراف المستشرق المعروف لويس ماسينيون (M. Louis Massignon).

وقد قام بتعريبها الدكتور عبد الصبور شاهين، ونشرت بهذا العنوان: "دستور الأخلاق في القرآن" (دراز، ١٩٧٣).

والكتاب عبارة عن محاولة لاستخلاص واستقراء الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، وقد قسم المؤلف الكتاب إلى مقدمة، وقسم نظري، وقسم عملي:

١. القسم النظري: النظرية الأخلاقية كما يمكن استخلاصها من القرآن، وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: الإلزام.

الفصل الثاني: المسؤولية.

الفصل الثالث: الجزاء.

الفصل الرابع: النية والدوافع.

الفصل الخامس: الجهد.

٢. القسم العملي: الأخلاق العلمية، وفيه مدخل، وخمسة فصول:

الفصل الأول: الأخلاق الفردية.

الفصل الثاني: الأخلاق الأسرية.

الفصل الثالث: الأخلاق الاجتماعية.

الفصل الرابع: أخلاق الدولة.

الفصل الخامس: الأخلاق الدينية.

هذا وقد تمثلت إشكالية الكتاب في وجود فجوة عميقة في كتب منظري الأخلاق فهم يقفزون من تراث اليونان والفكر اليهودي النصراني إلى الفكر الأوربي الحديث. هذا التجاهل لدراسة الأخلاق القرآنية يحرم الإنسانية من حل المعضلة الأخلاقية، ولما كانت المكتبة الإسلامية نفسها تفتقر إلى مصنف يجلي حقيقة الشريعة الأخلاقية في القرآن الكريم، فإن الشيخ دراز سعى ببحثه هذا لسد تلك الفجوة كما صرح بذلك: "ولذلك بدا لنا من الضروري أن نتناول الموضوع من جديد، وأن نعالجه تبعًا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هذه الأخطاء، وملء هذه الفجوة في المكتبات الأوربية، وحتى نري علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا" (دراز، ١٩٧٣).

وقد هدف المؤلف في هذا الكتاب إلى استنباط الشريعة الأخلاقية من القرآن وللكشف عن أصولها الثابتة حتى تتميز كبنية مستقلة، كما هدف أيضًا إلى إبراز اشتمال القرآن على النظام الأخلاقي بشقيه النظري والعملي، وإلى بيان منهجه الفريد في صياغة القواعد الأخلاقية، وذلك باستخلاص المؤلف النصوص القرآنية التي تعرضت لقضية الأخلاق، ليمثل بها تصور القرآن لهذا الموضوع، ورتبها ترتيبا منطقيا، ولم يتقيد بترتيب السور، وسار على اصطلاح فلاسفة الأخلاق في دراسته للموضوع، دون أن يغفل عن التذكير بأن القرآن ليس كتابا نظريا، وبين الفروق بين منهج التعليم القرآني والتعليم الفلسفي.

وقد ختم الشيخ عبد الله دراز بحثه بهذه الخلاصة:"لو افترضنا أن الإنسانية سوف تبقى أبدًا، وأنها سوف تغير ظروف حياتها إلى ما لا نهاية، فإننا نؤمل أن تجد في القرآن أنى توجهت قاعدة لتنظيم نشاطها أخلاقيًا، ووسيلة لدفع جهدها، ورحمة للضعفاء، ومثلاً أعلى للأقوياء. وأدنى ما يمكن أن نقوله في الأخلاق القرآنية: إنها تكفي نفسها بنفسها على وجه الإطلاق، فهي أخلاق متكاملة" (دراز، ١٩٧٣).

المبحث الثالث: ما أشكل بين وجوب طاعة محمّد ﷺ وخطاب العتاب الموجّه إليه

المطلب الأول: ذكر الآيات القرآنية التي توهم الإشكال في فصل الإلزام (دراز، ١٩٧٣)

ما أُشكِل بين الأمر بطاعة الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (القرآن. النساء: ٦٥)، وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (القرآن. النساء: ٨٠)، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (القرآن. النور: ٥٦)، وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (القرآن. الحشر: ٧)، وبين خطاب العتاب الموجه للرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (القرآن. النساء: ١٠٥)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (القرآن. الأنفال: ٦٧)، وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣)، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ (القرآن. التوبة: ١١٣).

المطلب الثاني: بيان وجه الإشكال

هناك شبهة يثيرها بعض المغرضين حول آيات العتاب، التي يوحي ظاهرها أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم قد يقع في الخطأ عند إصدار الأوامر والأحكام ليتلقاها الناس منه، وبالتالي فهو ليس معصومًا من الوقوع في الغلط عند إصدار الأحكام الإلهية، وهذا يتعارض تمامًا مع وجوب طاعته. وإذا كان كذلك، فإن طاعته ليست على سبيل الوجوب، وإنما على سبيل الاختيار؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر، يصيب ويخطئ.

المطلب الثالث: مسلك الشيخ دراز في تفسير الإشكال (دراز، ١٩٧٣)

للشيخ في تفسير هذا الإشكال عدة توجيهات:

١. أنّ جميع الأوامر النبوية لا تفرض تكليفًا نهائيًا، مهما يكن شأنه، شرعيًا أو دينيًا، إلا بقدرٍ، وبشرط أن ترتدي الفكرة التي يشتمل عليها صفة الوحي، صراحة أو ضمنًا؛ فإذا عدمت هذه الصفة الإلهية لم يعد للدرس أو المثال الذي قاله "الإنسان" سلطان على أحد، وقد وردت هذه التفرقة مشارًا إليها في النص القرآني، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (القرآن. الأنفال: ٢٤)، على أن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو الذي قرر ذلك بأوضح وجه وأصرحه، حين قال: «إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به، فإني لن أكذب على الله» (الحديث. مسلم. كتاب

الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا، على سبيل الرأي. ٢٣٦١/٢٣٦٢)، وهو في ذلك يقول لصحابته وأمته: «أنتم أعلم بأمر دنياكم» (الحديث. مسلم. كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا، على سبيل الرأي. ٢٣٦٣).

٢. أنه ربما يقع في أخطاء، صغيرة أو كبيرة، حين يتعرض لموضوع من موضوعات رسالته الإلهية نفسها، أعني: النظام الأخلاقي، أو التشريعي، أو العبادي، ما لم يكن مؤيدًا بالوحي. وهكذا وجدنا القرآن يعاتبه في مواقف كثيرة.

٣. أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– يعلن في موقف معين أنه معصوم، حين يكون مبلغًا –كما رأينا– أمرًا، بوصفه رسول الله، فإذا ما بلغ رسالته، وبينها للناس واستودعها ذاكرة الجماعة، فإن النقص الفطري الذي لا يفتأ يصيب انتباه الإنسان مهما يكن عقله قويًّا ذكيًّا –قد يجوز أن يظهر أحيانًا عنده، ولكن مع فارق هام هو: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يمكن أن يستمر مطلقًا على رأي خاطئ وإذا لم يعد إلى الصواب بالطريق المعتادة فإن الوحي يتدخل حتمًا لتصحيح خطئه، وإقامته على الصراط المستقيم، وإلا وقعت الجماعة كلها في الخطأ، والتزمت باتباعه في طريق الضلال. والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ (القرآن. التوبة: ١١٥).

٤. أنّه لولا هذا التقويم المستمر لنجم عن تخلفه أن تصبح كل أوامر النبي وأحكامه التي لم يقومها الوحي – موافقًا عليها ضمنًا، ولتلقاها الناس، ومعهم الحجة البالغة، على أنها أحكام إلهية. وقس على ذلك سائر أحواله، حين يعمل، فهي معدودة من حيث المبدأ أمثلة يُقتدى بها، وينظم المسلمون على أساسها سلوكهم، ما لم يصدر عنه ما ينقضها.

المطلب الرابع: تحليل ومناقشة

يرى الشيخ دراز أن التوجيهات النبوية لا تحمل دائما فرضًا تكليفيا، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم يتصرف أحيانا على كونه بشرًا يصيب ويخطئ، وخصوصا إذا كان الأمر يتعلق بالأمور الدنيوية، فهنا لا مجال للتكليف في ذلك، وإنما هو مجرد رأي، فمن شاء أخذ به، ومن شاء تركه، إذ ليس التحديث به على وجه اللزوم، وقد ضرب مثالا على ذلك من السيرة النبوية، وأما إذا كان الأمر يتعلق بأمور الدين، فهنا لا مجال للتردّد في الاستجابة؛ لذا فالشيخ دراز يشترط في التوجيهات النبوية، حتى تكون فرضا تكليفيا؛ أن تصبغ بصبغة الدين، أو كما عبر بقوله: "أن ترتدي الفكرة التي يشتمل عليها صفة الوحي، صراحة أو ضمنًا؛ فإذا عدمت هذه الصفة الإلهية لم يعد للدرس أو المثال الذي قاله "الإنسان" سلطان على أحد" (دراز، ١٩٧٣). كما يبين أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يجتهد رأيه في بعض أمور الدين المتعلقة بالنظام الأخلاقي، أو التشريعي، أو العبادي؛ إذا لم يكن مؤيّدًا بالوحي، فإن وافق الشرع أقر على اجتهاده، وإن لم يوافق عوتب

في ذلك، ووجه توجيها إلهيا، وهذا دليل على أن العتاب من هذا الباب لا غير، ولهذا لا مجال للتشكيك في رسالته أو التردد في الاستجابة لأوامره؛ بسبب خطاب العتاب الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين.

المبحث الرابع: ما أشكل بين المسؤوليّة الأخلاقيّة والشّفاعة الأخرويّة

المطلب الأول: ذكر الآيات القرآنية التي توهم الإشكال في فصل المسؤولية (دراز، ١٩٧٣)

ما أُشكِل بين المسؤولية الأخلاقيّة في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (القرآن. الأعراف: ٦)، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (القرآن. الإسراء: ١٣-١٤)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (القرآن. الإسراء: ٣٦)، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت: ١٣)، وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (القرآن. التكاثر: ٨)، وبين الشّفاعة الأخروية في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (القرآن. البقرة: ٢٥٥)، وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ (القرآن. يونس: ٣)، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ (القرآن. طه: ١٠٩)، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (القرآن. الأنبياء: ٢٨)، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (القرآن. سبأ: ٢٣)، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (القرآن. الزمر: ٤٤)، وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (القرآن. الزخرف: ٨٦)، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (القرآن. النجم: ٢٦).

المطلب الثاني: بيان وجه الإشكال

هناك شبهة موجودة عند بعض الناس حول مفهوم الشفاعة ونقضها للمسؤولية؛ وذلك بسبب سوء فهمهم لآيات الشفاعة في القرآن الكريم من جهة، وبسبب واقع تعامل الناس مع الشفاعة في هذه الدنيا القائم على المحاباة، وبالتالي فما دام فيه شفاعة يوم القيامة، فالإنسان بإمكانه أن يرتاح، ويتخلّى عن مسؤوليّته الدّينية، بما في ذلك ما يجب على العبد أداؤه تجاه خالقه، أو نفسه، أو بني جنسه، أو غير بني جنسه؛ وهذا يتعارض مع الآيات التي توجب مسؤولية الفرد عن جميع أعماله، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (القرآن. الحجر: ٩٢ – ٩٣).

المطلب الثالث: مسلك الشيخ دراز في تفسير الإشكال (دراز، ١٩٧٣)

للشيخ في تفسير هذا الإشكال عدة توجيهات:

١. أن الشفيع لا يقترح التدخل، ولا يسمح لنفسه بأن يتدخل من تلقاء نفسه، وإنما الله هو الذي بيده الأمر، فهو الذي يأذن له بالكلام.

٢. أن الشفيع لا يتدخل إلا من أجل من يرتضي الله سبحانه قبوله.

٣. أن الشفيع لا يتصرف على أساس جاهه عند الحاكم الأعلى، بل إنه يدافع عن المشفوع له متوسلًا ببعض فضائله، وهو توسل ينبغي أن يطابق الواقع، لا يعدو أن يكون دور شاهد موثوق به، مهمته إكمال جهاز العدالة المعقد، وعمل الشفيع في هذه المهمة الجليلة أن يعلن الصفات والحسنات الصالحة التي تعوض سيئات المؤمنين، وأن يبرر العفو عنهم، أو استحقاقهم للمثوبة.

٤. أن قضية الشّفاعة لا يمكن أن تكون دائمًا رابحة؛ ذلك أن أحاديث الشفاعة نفسها تذكر لنا حالات أخطأ فيها الشفيع في صحة الوقائع المروية، وحينئذ ينسحب الدفاع، ويتنازل عن مسعاه بمجرد علمه بالحقيقة. وهذا هو ما قاله الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن نفسه من أنه في ذلك اليوم سوف يطلب تبرئة بعض الناس الذين يعرفهم كأصحابه؛ خلال حياته في الدنيا، فيقال له: "إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، فيقول: «سحقًا سحقًا» (الحديث. البخاري. كتاب الطّب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء. ٦٥٨٣).

٥. أن الحكم يصدر دائمًا تبعًا لفضائل المحكوم عليه، لا على أساس التوسلات، ومهما بذلنا من جهود مضاعفة، ودعوات ورجوات من أجل من نحبهم، أو نعطف عليهم، فلا يعدو ذلك أن يكون لفتة جميلة، وهو واجب علينا، ولكن ليس هذا هو الذي سينقذهم؛ فإذا ما بلغت جهودنا غايتها، واستجيبت دعواتنا؛ فذلك لأنهم يستحقون رضا الله، تبعًا لشرائعه.

المطلب الرابع: تحليل ومناقشة

تعرض الشيخ دراز لفكرة الشفاعة وعلاقتها بالمسؤولية: فتساءل هل تغير الشفاعة مصير الفرد وتورثه جزاء لا يستحقه؟ ويجيب مُعَضّدًا رأيه بالآيات مفادها: أنه لا تعارض بين المسؤولية الأخلاقية والشفاعة الأخروية؛ لأن المسؤولية هي عبارة عن استعداد فطري والقدرة على الإلزام الذاتي، وهذا لا يعني أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أفعاله، وإنما هنالك في القرآن الكريم تحميل للكبراء مسؤولية ما يفعله أتباعهم؛ لأنهم كان لهم دور في تضليل الأتباع كما يقول تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ (القرآن. العنكبوت: ١٣)، ثم يبين الشيخ أن الشفاعة لا تنقض المسؤولية ولا تنفيها كما يتوهّم البعض، ثم يبين أن للشفاعة شروطًا.

ومن ذلك: أن الشفعاء لا يشفعون لأحد بدون إذن الله تعالى ورضاه، وأن يكون المشفوع له فيه الحد الأدنى من العمل الصالح الذي يؤهله للحاق بأهل الجنة؛ لأن الله تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال؛ إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم، وأنه لا مجال للجاه والمحاباة والمجاملة والتوسلات في الشفاعة؛ لأن الشفاعة هي أقرب إلى الشهادة منها إلى ترشيح كفة الإنسان بما لا يستحق، ويؤكد أن الشفاعة لا تنفع من لا يستحق، حتى لو كانت شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ويذكر الحديث: "إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك"، فيقول: «سحقًا سحقًا» (الحديث. البخاري. كتاب الطّب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء. ٦٥٨٣). وبالتالي فمهما بذلنا من جهود مضاعفة، ودعوات ورجوات من أجل من نحبهم، فإن ذلك لن ينقذهم؛ إذا لم تتحقق شروط الشفاعة فيهم؛ وبالجملة، فالشفاعة ليست تسويغًا لترك المسؤولية الأخلاقية في الدنيا؛ وإنما هي إخراج من في النار؛ إذا تحقق فيه الحد الأدنى من العمل الصالح.

المبحث الخامس: ما أشكل بين المسؤوليّة الفرديّة والإلحاق بدرجات الجنة

المطلب الأول: ذكر الآيات القرآنية التي توهم الإشكال في فصل المسؤولية (دراز. ١٩٧٣)

ما أشكل بين المسوليّة الفردية في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (القرآن. النحل: ٢٥)، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ﴾ (القرآن. العنكبوت: ١٢)، وقوله: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ﴾ (القرآن. لقمان: ٣٣)، وبين الإلحاق بدرجات الجنة في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ﴾ (القرآن. الطور: ٢١).

المطلب الثاني: بيان وجه الإشكال

ظاهر آيات إلحاق الأبناء بالآباء والأجداد في درجات الجنة؛ يوحي أنّ الإنسان لا يحتاج إلى بذل الجهد الشخصي للوصول إلى هذه الدرجات. وهذا يتعارض مع مبدأ الثواب والعقاب تبعًا للجهد الفردي، أو أعمال الآخرين، وأيضًا مع الحقيقية الشّرعية في أنه لا ينفع أحدًا عمل أحد، وفقًا للقاعدة القرآنية: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (القرآن. النجم: ٣٩).

المطلب الثالث: مسلك الشيخ دراز في تفسير الإشكال (دراز، ١٩٧٣)

للشيخ في تفسير هذا الإشكال عدة توجيهات:

١. إنّ الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أيّ تحويل، أو امتداد، أو اشتراك، أو التباس، حتى بين الآباء والأبناء، وإذا كان آباؤنا وأجدادنا مسؤولين مثلًا عن الأمثلة التي لقّنوها لنا، والعادات التي أخذناها عنهم، وإذا كنا مسؤولين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة، فلا يجب مطلقًا أن

نتحمّل معهم وزر ما عملوا: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (القرآن. البقرة: ١٤١).

٢. إنّ القرآن ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب، لا على أنه مضاد للشريعة فحسب، بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ (القرآن. يوسف: ٧٩).

٣. إنّ الإنسان ليس مسئولًا فقط عن الأعمال التي يدعو إليها في صورة تدخل إيجابي ومباشر لدى الآخرين، حين يصدر إليهم أوامر، أو نصائح، أو إيحاءات، وليست المسئولية فقط هي مسئولية القدوة التي تأتي من أعلى لتنتشر بين الجماهير، بفضل مهابة صاحبها وحدها، بل إن كل مبادرة، حسنة أو سيئة، من أية جهة كانت، سيكون لها أهمية لا تتوقف حدودها عند واقعها، أو نتائجها المباشرة، ما دامت صالحة لأن يقتدي بها الآخرون. ولقد أعلن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن مسئولية صاحب العمل المبتدع سوف تتضاعف بقدر ما يحتذي الناس مثاله خلال القرون المقبلة، إلى يوم القيامة، قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (الحديث. مسلم. كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار. ١٠١٧).

٤. إنّ الإنسان لا يسأل عما قدمت يداه فحسب، بل سوف يسأل أيضًا بصورة ما عن تصرفات الآخرين، فنحن مسؤولون عن انحراف مسلك أقراننا، حين نتركهم يسيؤون دون أن نتدخل بجميع الوسائل المشروعة التي نطبقها، لنمنعهم من الإساءة. وإن القرآن ليحدثنا أن شعبًا قديمًا قد تعرض للعنة على ألسنة الأنبياء، وكان كل ذنبه –حتى يستحق هذه اللعنة– أن المجتمع لم ينكر على بعض أعضائه فعلهم للشر. فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (القرآن. المائدة: ٧٨ – ٧٩).

٥. إن السعادة أو الشقاء الذين يمكن أن يصيبا الإنسانية من عمل يتم عن غير قصد، بل وقد لا يراه صاحبه مفصلًا، ولا يقدره قدره –سوف يضمان إلى الرصيد الإيجابي أو السلبي لصاحبهما، حتى لو لم يحدثا إلا بعد موته، والرسول –صلى الله عليه وسلم– يقول: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (الحديث. مسلم. كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. ١٦٣١).

المطلب الرابع: تحليل ومناقشة

يبين الشيخ دراز أن إلحاق الذريات بآبائهم في الجنة؛ ليس عبارة عن إخراج من النار وإدخال إلى الجنة، وإنما هو فقط عبارة عن إلحاق في درجات الجنة داخل الجنة نفسها؛ لأجل لم شمل الأجداد والآباء وإن علوا بالأبناء وأبناء الأبناء وإن سفلوا، وأنّ الإنسان يوم القيامة لا يتحمل إلا ما كسبت يداه في الدنيا؛ بمعنى لا يوجد توارث بين الآباء والأبناء في مسألة الحسنات والسيئات؛ مع التأكيد أن الإنسان قد يتحمل أوزار الآخرين كما سبق؛ إذا كان سببا في إغوائهم، كما أنه قد يحصل على نسبة من أجور أعمال الآخرين؛ إذا كان سببا في هدايتهم واستقامتهم، ويسمي هذا بـ: "مسؤولية القدوة" في مسألة الحسنات والسيئات؛ لأن أعمالهم ستنتشر بين الناس بفضل وجاهة أصحابها ومهابتهم عند الناس، وبالتالي سيكون لأصحابها نصيب أو كفل منها ما دامت صالحة لأن يقتدي بها الآخرون.

وقد استدل على جميع هذه المفاهيم بآيات القرآنية وأحاديث نبوية؛ لأجل التأكيد على الإجابات والتوجيهات التي تقدم بها، وأنها مستمدة من الشرع.

الخاتمة

لقد كان الغرض الرّئيس من كتابة هذا البحث؛ استعراض بعض النماذج التطبيقية للآيات القرآنية التي يوهم ظاهرها التعارض، ثم ذكر كيفية تفسيرها من خلال كتاب دستور الأخلاق في القرآن للعلامة عبد الله دراز رحمه الله، ثم القيام بتحليلها ومناقشتها ما أمكن؛ تدريبًا في كيفية تفسير مشكل القرآن الكريم بطريقة علمية رصينة.

النّتائج

١. يعدّ الشيخ عبد الله دراز أنموذجًا من الطّراز الأوّل في تفسير مشكل القرآن الكريم، بطريقة فلسفيّة رائدة، جعلته متميّزًا عمّن كتبوا في هذا المجال في القديم والحديث؛ ذلك وأنه استطاع بفرط ذكائه، ومعارفه العلمية التي حصل عليها في جامع الأزهر، وجامعة السربون في تفسير بعض الآيات القرآنية التي يوهم ظاهرها التعارض سواء المتعلقة منها بالعقيدة أو العبادة أو الأخلاق.
٢. قيام الشيخ دراز بالتأسيس لعالمية القرآن الكريم من خلال معالجته لمشكل القرآن الكريم الذي أثير في الشرق والغرب، وبالتالي فهو لم يقدم عمله الأكاديمي إلى المسلمين فقط، وإنما إلى الإنسانية جميعًا، وهذا أليق بعالمية القرآن الكريم.
٣. قيام الشيخ دراز بتوظيف أسلوب المحاصرة المنطقية في حل الإشكالات المعاصرة المثارة حول آيات القرآن الكريم.

٤. قيام الشيخ دراز باستعمال الرأي المحمود في مناقشة النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض وتفسيرها وتحليلها، سالكا مسلك إيضاح الآيات القرآنية بالآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، مع اللجوء إلى كتب التراث الإسلامي وكتب فلاسفة الغرب. وبهذا يكون قد قدم إجابات مقنعة عن مشكل القرآن الكريم، جمع فيها بين معارفه الإسلامية ومعارفه الغربية.

٥. تقوم طريقة الشيخ دراز في تفسير مشكل القرآن على خمس مراحل هي: مرحلة الإدمان على قراءة القرآن، مرحلة معرفة معنى الآيات، مرحلة إثارة الأسئلة، مرحلة مفاتشة العلماء، مرحلة التأمل والتعمق. وهذا الذي يسميه السلف بتثوير القرآن، ومعناه: قراءته ومفاتشة العلماء به، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: "من أراد العلم فليثوّر القرآن، فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين" (الحديث. الطبراني. من مناقب ابن مسعود. ٨٦٦٦).

التّوصيات

١. العكوف على دراسات بحثية، وأوراق عمل أكاديمية متخصصة حول كتب عبد الله دراز؛ لأن فيها أفكارًا رائدة في مجال التجديد في مباحث علوم القرآن؛ ومن ذلك: استخدام أسلوب المحاصرة المنطقية في تفسير مشكل القرآن الكريم.

٢. العمل على إنجاز مشروع علمي أكاديمي حول: «حل الإشكالات المعاصرة المثارة حول آيات القرآن الكريم»؛ للطلاب الراغبين في التسجيل لدرجتي الماجستير والدكتوراه، وفق خطة علمية محكمة، تجمع فيها الجهود وتوزع من خلالها المهام، وتنفي التكرار والتداخل عن الرسائل العلمية، ويكون هذا بحصر الكتب العربية والأجنبية التي تعرضت لمشكل القرآن الكريم، ودراستها دراسة تحليليّة موسّعة ونقدية معمّقة، ويكون هذا بناء على طريقة الشيخ دراز في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب من خلال كتابه الفذّ «دستور الأخلاق في القرآن».

وختاماً نسأل الله ﷻ أنّ يوفّق الجميع لتثوير القرآن الكريم، وتفهّم معانيه مع التأثّر بها، ودفع ما يوهم التعارض بين آياته، والعمل على فعل أوامره، وترك نواهيه، والتنوّر بهداياته وإلهاماته، والدّعوة إلى تعاليمه على بصيرة، والجهاد به جهاداً كبيرًا لا يخالطه فتور.

تمَّت الدِّراسة ولله الحمد والمِنَّة، اللَّهمَّ هذا الجهد، وعليك التُّكلان، وصلَّى الله على نبيّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المراجع

ابن فارس، أحمد. ١٩٨٠. معجم مقاييس اللغة. مصر: مطبعة البابي الحلبي.

ابن عاشور، محمد الطاهر. ١٩٨٤. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

ابن منظور، محمد بن مكرم. ١٩٩٤. لسان العرب. بيروت: دار صادر.

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. ٢٠٠٠. البحر المحيط في التفسير. بيروت: دار الفكر.

باي زكوب، عبد العالي. ٢٠١٩. مقوّمات تدبّر القرآن الكريم ومعوّقاته. ماليزيا: مجلة القناطر.

البخاري، محمد بن إسماعيل. ٢٠٠٢. صحيح البخاري. بيروت: دار الكتب العلمية.

البيومي، محمد رجب. ١٩٩٥. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين. دمشق: دار القلم.

دراز، محمد عبد الله. ١٩٧٣. دستور الأخلاق في القرآن. بيروت: مؤسسة الرسالة ؛ الكويت: دار البحوث العلمية.

الزرقاني، عبد العظيم. ١٩٩٩. مناهل العرفان في علوم القرآن. مصر: مطبعة البابي الحلبي.

الزركشي، أبو عبد الله. ١٩٥٧. البرهان في علوم القرآن. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

السيوطي، عبد الرحمن. ١٩٧٤. الإتقان في علوم القرآن. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشنقيطي، محمد بن مختار. ٢٠١٧. فيلسوق القرآن الكريم محمد عبد الله دراز: حياته وآثاره. القاهرة: دار المشرق.

الطبراني، سليمان بن أحمد. ١٩٩٤. المعجم الكبير. القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

عقيلة، عبد الرحمن. ٢٠٠٦. الريادة والإحسان في علوم القرآن. الشارقة: مركز البحوث والدراسات بجامعة الشارقة.

فضلية، أحمد مصطفى. ٢٠٠٧. محمد عبد الله دراز: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه. القاهرة: دار القلم.

القصير، أحمد بن عبد العزيز. ٢٠٠٩. الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم. السعودية: دار ابن الجوزي.

مجموعة من العلماء. المعجم الوسيط. مصر: دار الدعوة.

مقداد يالجن. ١٩٧٧. التربية الأخلاقية الإسلامية. القاهرة: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

مسلم، أبو الحسن. د.ت. صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

REFERENCE

Abu Hayyan, Muhammad bin Yusuf Al-Andalusiyy. 2000. *Al Bahr Al-Muhit Fi Al-Tafsir*. Bayrut: Dar Al-Fikr.

'Aqilah, 'Abd Al-Rahman. 2006. *Riyadah Wa Al-Ihsan Fi 'Ulum Al-Qur'an*. Al-Shariqah: Markaz Al-Buhuth Wa Al-Dirasat Bi-Jami'at Al-Shariqah.

Al-Bayumiyy, Muhammad Rajab. 1995. *Al-Nahdah Al-Islamiyyah Fi Siyar A'lamiha Al Mu'asirin*. Dimashq: Dar Al-Qalam

Bey Zekkoub, Abdelali. 2019. *Muqawwimat Tadabbur Al-Qur'an Al-Karim Wa-Mu'awwiqatuhu*. Malaysia: Majallah Al-Qanatir.

Al-Bukhariyy, Muhammad bin Isma'il. 2002. *Sahih Al-Bukhariyy*. Bayrut: Dar Al-Kutub Al-'Arabiyyah.
Diraz, Muhammad 'Abd Allah. 1973. *Dustur Al-Akhlaq Fi Al-Qur'an*. Bayrut: Mu'assasah Al-Risalah.
Fadliyyah, Ahmad Mustafa. 2007. *Muhammad 'Abdullah Diraz: Dirasat Wa-Buhuth Bi-Aqlam Talamidzatihi Wa-Mu'asirih*. Al-Qahirah: Dar Al-Qalam.
Ibn 'Ashur, Muhammad Tahir. 1984. *Al-Tahrir Wa-Tanwir*. Tunis: Dar Al-Tunisiyyah Lil-Nashr.
Ibn Faris, Ahmad. 1980. *Mu'jam Maqayis Al-Lughah*. Misr: Matba'at Al-Babiyy Al-Halabiyy.
Ibn Manzour, Muhammad bin Mukrim. 1994. *Lisan Al-'Arab*. Bayrut: Dar Sadir.
Majmu'ah Min Al-'Ulama'. *Al-Mu'jam Al-Wasit*. Misr: Dar Al-Da'wah.
Miqdad Yaljin. 1977. *Al-Tarbiyyah Al-Akhlaqiyyah Al-Islamiyyah*. Al-Qahirah: Maktabah Al-Khanjiyy Bi Al-Qahirah.
Muslim, Abu Al-Hasan. N.d. *Sahih Muslim*. Bayrut: Dar Iḥya' Al-Turath Al-'Arabiyy.
Al-Qasir, Ahmad bin 'Abd Al-Aziz. 2009. *Al-Ahadith Al-Mushkilah Al-Waridah Fi Tafsir Al-Qur'an Al-Karim*. Al-Sa'oudiyyah: Dar Ibn Al-Jawziyy.
Al-Shanqitiyy, Muhammad bin Mukhtar. 2017. *Faylasouf Al-Qur'an Al-Karim Muhammad 'Abd Allah Diraz: Hayatihi Wa-Atharihi*. Al-Qahirah: Dar Al-Mashriq.
Al-Suyutiyy, 'Abd Al-Rahman. 1974. *Al- Itqan Fi 'Ulum Al-Qur'an*. Misr: Al-Hay'ah Al-Misriyyah.
Al-Tabraniyy, Sulayman bin Ahmad. 1994. *Al-Mu'jam Al-Kabir*. Al-Qahirah: Maktabah Ibn Taymiyyah.
Al-Zarkashiyy, Abu 'Abd Allah. 1957. *Al-Burhan Fi 'Ulum Al-Qur'an*. Al-Qahirah: Dar Al-Ihya' Al-Kutub Al-'Arabiyyah.
Al-Zarqaniyy, 'Abd Al-'Azim. 1999. *Manahil Al-'Irfan Fi 'Ulum Al-Qur'an*. Misr: Matba'ah Al-Babiyy Al-Halabiyy.

إنكار

الآراء الواردة في هذه المقالة هي آراء المؤلف. القناطر: مجلة الدراسات الإسلامية العالمية لن تكون مسؤولة عن أي خسارة أو ضرر أو مسؤولية أخرى بسبب استخدام مضمون هذه المقالة.